مشروع المدى (الكتاب للجميع) يثير اهتمام الوسط الثقافي

آراء ومقترحات عدد من المثقفين العراقيين لتطوير المشروع

اثار مشروع (الكتاب للجميع) الخاص بمؤسسة المدى والمتمثل بإصدار عدد من العناوين المهمة تأخذ في الحسبان نشر الوعي الثقافي لدى المتلقي العربي وتحرص المدى الثقافي على استطلاع آراء نخبة من المثقفين أبدى البعض منهم مقترحات بشأن ما صدر من هذا المشروع حتى الان .

متابعة - عبد اللطيف الراشد

جائزة (المدى) الادبية

الناقد والشاعر خضير ميري قال:

مديات (المدى) المشروع الأدبي العراقي خارج التكريس او الأحادية الأيديولوجية او الاشهارية السهلة، فهو مشروع كنا نتابعه بحماسة مذ كان خارج العراق وكان في داخله اكثر منهجية ويتوخى الفائدة وحسن الاخراج والرصانة المطلوبة للكتاب العراقي. وحول مقترحات تطوير هذا المشروع قال: آمل ان تعيد (المدى) طباعة الكتب العراقية القديمة بأسلوبها الطباعي ومشروعها الثقافي المتميز ككتب (الزهاوي) و(الرصافي) و (الحصري) و (حسين مردان) و (علي الوردي) وياسين خليل) وغيرهم وذلك بسبب شحة هذه الكتب، وأتمنى كذلك ترويج اسلوب الكتاب الحواري والمحاور الفكرية المشتركة ضمن مائدة المدى او من خلالها.

إضافة الى اننا نطمح من خلال المدى الى اعادة الاهتمام بالمطبوع الشبابي والسعي الى ابتكار جائزة أدبية هي جائزة المدى للابداع العراقي بغية تعزيز العدالة الأدبية وإنصاف الكاتب العراقي في الداخل والخارج .

(المدى) ومطبوعاتها انما هي مشروع عراقي مهم اثبت نجاحه بجدارة غير مسبوقة.

التنويع

وعن أهمية هذا المشروع تحدث القاص حميد المختار: انه خطوة رائعة وجميلة ان تتبنى صحيفة يومية تابعة لدار نشر كبيرة فكرة ومشروع إصدار مطبوع سواء كان شهرياً ام فصليا ام حتى سنوياً وطرحه الى سوق الثقافة المتعطشة لمطبوعات جديدة ترسخ المشاريع الفكرية والإبداعية التي تعج بها ساحاتنا الثقافية والفكرية والإبداعية، لهذا فخطوة المدى هذه مباركة جداً وثمينة جداً وقد وضعت باعتقادي اللبنات الاولى لتأسيس مشروع كهذا بعد مشروع (كتاب في جريدة) اما بالنسبة الى نوعية المطبوع فانا أرى ان التنوع مهم وضروري جداً فالمطبوعات التي صدرت حتى الان تعود الى سنوات قديمة في محاور فكرية أسست لثقافات واتجاهات مازال اللغط قائما عليها حتى الآن ونريد ايضاً من الدار ان تنوع للقراء وتقدم لهم اجناسا اخرى في الرواية والقصة القصيرة والشعر ما كان وبقي مغايراً في المشروع الإبداعي العربي، انها خطوة رائدة اتمنى لها الاستمرار والنجاح.

ما بعد الثناء

وقال الشاعر نعمان النقاش سلسلة الكتب الشهرية التي توزع مجاناً مع صحيفة المدى بالرغم من انها خطوة جبارة وتنم عن موقف اخلاقي مسؤول ازاء المثقف والمجتمع هي ظاهرة ثقافية ينبغي التوقف عندها ليس من باب الثناء فقط بل من اجل اغنائها بالتحليل والدراسة لما فيها من تأسيس لسياسة ثقافية جديدة تلزم المثقف والمؤسسات الثقافية الحكومية وغيرها بالسعي من اجل اللحاق بالركب العالمي لثقافة المطبوع الذي بات في طور من اطوار تطوره البحث في كل ما يعني ثقافة الغير من خلال تلاقح الثقافات ومد الجسور فيما بينها وتسليط الضوء على كل ما هو جوهري واخضاعه للتحليل والدراسة وتسويقه وفق افضل السبل .

ويرى الناقد التشكيلي جواد الزيدي ان جريدة المدى في مشروعها هذا باصدار كتاب مطبوع بشكل أنيق وجيد يعد عملاً رائعاً .. ان يطالع قارئ الجريدة كتاباً في احد حقول المعرفة الانسانية. في حين يؤكد الاديب علي الغزالي ان اصدارات المدى ضرورة لاعادة قراءة ما يواكب مجريات وخطاب العصر وتجلياته في شتى ميادين الابداع .

بينما يقول الدكتور شاكر اللامي ان القارئ بحاجة الى قراءة احدث ما تدفعه دور النشر العربية التي حرم القارئ العراقي منها على مدى أربعة عقود خلت وقد تمكنت جريدة المدى كمؤسسة ان تعوضه عما كان يطمح اليه..

تحدث الشاعر حسن عبد راضي بالقول:

اعتقد ان مشروع المدى في إعادة إصدار أعمال رواد الثقافة العربية في طبعات شعبية توزع مجاناً مع الجريدة يشكل انجازاً مهماً وخطوة رائدة في اتجاه التعريف بانجازات ثقافية كانت تمثل ركائز أساسية في البنية الثقافية العربية الحديثة والمعاصرة .

ولعل هذا المشروع يوازي في أهميته مشروع (كتاب في جريدة) الذي كانت تضطلع بإصداره منظمة اليونسكو بالتعاون مع مؤسسات صحفية عربية عديدة، الالتفات الى ان مشروع اليونسكو كان معنياً بإصدارات معاصرة لمبدعين عرب مع استثناءات بسيطة، في حين يركز مشروع المدى على كتب تعد الآن مصادر لا يطولها التداول اليومي -على اهميتها- ولا يسع غير الباحث المتخصص ان يلتفت الى وجودها..

ان القارئ العراقي بصدد الاطلاع على ما انجزه مفكرون ومبدعون عرب مطلع القرن المنصرم، ولعل هذا المشروع قد أتاح لمن فاتهم الإطلاع على هذا النتاج ان يتداركوا هذا الامر، كما يتيح للناشئة ان يؤسسوا ثقافتهم على نحو منطقي فيبدأوا من حيث ينبغي لهم البدء وصولاً الى ما انتجته الثقافة المعاصرة من افكار.

تنويهات ضرورية

وابدى الشاعر علي حنون العقابي إعجابه وصلته بجريدة المدى .حيث قال: لقد كنت أتمنى ان أخاطب صحيفة (المدى) منذ وقت طويل، نتيجة لعلاقتي بمشروعها الثقافي المتنوع.. ولكن حال بيني وبينها بعض من التفاصيل، ليس هنا مجال ذكرها، مع انني أعترف بالفضل الكبير بجهود هذه المؤسسة التي تسعى جاهدة لتقديم مائدة الثقافة المتنوعة، حتى انني اقف مندهشاً عندما ازور مكتبتها في شارع السعدون، واخرج عاجزاً امام هذا الكم الهائل من التنوع الرائع، فهل اقول بأنني اعشق هذا الجهد المهم، واخاف عليه في الوقت نفسه، وواحدة من اسباب ذلك الخوف، انني رأيت(كتاب الثقافة للجميع) يُسرق امام انظار الجميع، ويباع باسعار خارج مشاعيته، ربما هذا يدل على أهمية الكتب التي طبعتها (المدى) حتى الان، ولكن تبقى هنالك ضرورة في التعامل مع اصحاب المكتبات العامة، واستغلالهم لهذا المشروع الحيوي، والمهم، والمدعوم، من اجل خلق ثقافة انسانية منفتحة على العالم المتوهج في تطوره، وفي عدم توازننا مع العالم للأسف يجعلنا وبالضرورة نهتم بجوانب الخلل، لكي لايضيع الجهد في الهباء.

مكتبة لعامة الناس

وفي وقفة مع الروائي علي حسين عبيد قال:

- يفتقر القارئ العربي بوجه عام والعراقي بوجه خاص الى المكتبة الموسوعية التي ترتفع بوعيه وآفاق ذهنيته الى مصاف الذهنية المتفتحة الموهوبة المستعدة على الدوام للتفاعل مع التطورات الانسانية المذهلة التي حدثت ومازالت تحدث على الارض..

ومؤسسة المدى في مشروعها هذا إنما تؤسس لمشروع مكتبة (لعامة الناس) وللقارئ العراقي الذي عانى جفاف الوعي والفكر وازدادت ذهنيته جفافاً وأحادية من حيث التأمل او التفكير.. وليس من باب المدح المجاني بل الوقائع هي التي تتحدث عن مشروع كتاب المدى من حيث تنوعه وموسوعيته وتقديمه لخدماته الفكرية والابداعية الجليلة لكل الناس.. ما مطلوب الان فقط ضمان وصول هذه الكتب الى القارئ بشكل عادل وتوضع آلية توزيع تضمن العدالة فيه.

في الائتلاف والاختلاف ، ثنائية السائد والمهمش في الفكر الإسلامي القديم

جرأة في الطرح، واجتهاد في المعالجة

دمشق ـ ابراهيم حاج عبدي

على امتداد التاريخ البشري سعت السلطات السياسية إلى تكريس مفاهيم ومقولات وآراء تدعم مواقفها، وممارساتها العملية على رأس هرم السلطة، وهي لم تدخر جهدا في استقطاب أهل الفكر والعلم، بالترغيب حينا والترهيب أحيانا ليشرع لها ما تقوم به من أعمال، وتسوغ لها تجاوزاتها وخروقاتها، وبهذا المعنى نشأ "حلف وثيق" و"غير مقدس" بين السلطتين السياسية والدينية، الأولى تسعى إلى كسب ود المفكرين، وعلماء الدين بالعطايا، والمنح، والمناصب، وهؤلاء . بدورهم . يسعون إلى تبرير أفعال السلطة السياسية لغايات شخصية دنيوية أو لقناعات يرون فيها الحقيقة المطلقة، لكن بالمقابل وعلى الدوام كانت ثمة أصوات مهمشة، ومقصية إلى الزوايا المعتمة بالإكراه والقسر، فهي لا تنصاع لاكراهات السلطة السياسية وجبروتها كما أنها لا تبالي بالعطايا، والأموال بل تبحث بدلا من ذلك عن الحقيقة بمعزل عن أي شيء آخر، وعاشت في فقر مدقع، بل دفعت في مرات كثيرة أثماناً باهظة لمواقفهم المختلفة عن السائد.

والواقع أن أصحاب الرأي السائد "المكرس" يقدمون طروحاتهم وآراءهم على أنها حقائق ثابتة لا يرقى إليها الشك، ويغلقون الباب أمام فضيلة البحث العقلاني عن الحقيقة، لان هذه الأخيرة في نظرهم واحدة وغير نسبية، على عكس أصحاب الآراء المختلفة، المهمشة الذين يصغون إلى صوت العقل، ويتمتعون بفضيلة البحث عن الحقيقة إذ يقرون بنسبيتها، ولا يدعون احتكارها، كما أنهم لا ينكرون حق الآخر في الحوار، والرأي، والمماحكة كسبيل للوصل إلى التصورات، والأفكار الأكثر قربا إلى العقل والمنطق.

لا يشذ تاريخنا عن هذه القاعدة بل ربما يشكل التجسيد الأمثل لما نذهب إليه، إذ عمدت السلطة السياسية في بداية التأسيس وما تلتها من مراحل إلى تكريس "سلطة المقدس"، والتأسيس عليها باحتكار الحقيقة المطلقة، ساعدها في هذا التصور علماء الدين، والفقه، والمحدثين إذ سعى الطرفان (السياسي والديني) إلى تكريس اختيارات بعينها، وتوطيد ما يعتقد انه "سلطة المقدس" دون ترك المجال لإعمال العقل، وهذه الأفكار والتصورات سميت بـ "السائد"، و"المؤتلف" والتي أثرت في العامة المطمئنة إلى مثال أعلى ناجز أكثر من اطمئنانها إلى قناعات غير متحققة، وعرضة للجدل.

وفي المقابل برزت محاولات تسعى إلى تقويض "سلطة المقدس"، وإخضاعها للواقع، وللتاريخي، والدنيوي، ولا ترضى باليقين الجاهز، بيد أن هذه المحاولات كانت عرضة للإقصاء والتهميش لأنها تشكل خطا مخالفا للمكرس والسائد، بل تشكل خطرا على التوازن الاجتماعي والسياسي المفروض، وهذه المحاولات سميت بالمهمش والمختلف.

ثنائية "المؤتلف"، و"المختلف" هي ما تحاول الباحثة التونسية ناجية الوريمي بو عجيلة معالجتها في كتابها (في الائتلاف والاختلاف، ثنائية السائد والمهمش في الفكر الإسلامي القديم) الذي جاء ثمرة للتعاون الفكري والمعرفي بين دار المدى ومؤسسة التحديث الفكري، والقضية التي تعالجها الباحثة هي قضية شائكة، ومعقدة لكنها تحتاج إلى المراجعة وإعادة النظر اليوم، فهي "لا تزال تدرس بمعايير تقليدية مذهبية أو سياسية أو عرقية غير مجدية من حيث الكشف عن طبيعة المشاريع المعرفية التي تمثلها كل مجموعة من الاختيارات، ومن حيث إدراك وظائفها التاريخية المتباينة في صلب الصراع الإنساني الدائر عصرئذ"، وتقول الأكاديمية التونسية بأنها اجترحت مصطلح "المؤتلف" لينهض بمفهوم الاختيارات الفكرية السائدة، والشائعة التي تآلفت عليها المجموعة ورفعتها إلى مستوى الحقائق العامة التي عملت فيها عادة التعود بالشيء عملها، والتي انتظمت عناصرها ونجحت في التحول إلى سلطة مرجعية مفروضة على الجميع، وقد واجهتها هنا مشكلة وفرة المصادر التي توقع في حيرة الاختيار، فاكتفت بنماذج في كل مجال من مجالات البحث فتختار في مجال السيرة "سيرة ابن اسحاق"، وإعادة صياغة ابن هشام لها في "السيرة النبوية"، وفي مجال التفسير وعرضه لأسباب النزول تختار محاولات التفسير الأولى التي جمعها الطبري في كتابه "جامع البيان في تأويل القرآن" المعروف بتفسير الطبري. وفي مجال أصول الفقه تختار "رسالة الشافعي"، وفي مجال الخلاف بين المحدثين والمتكلمين تختار "صحيح البخاري"، ومن كتب التراجم تختار "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي.

أما مصطلح "المختلف" التي اجترحته الباحثة أيضا، فتعنيأي به جملة المعطيات الواقعية والحقائق الفكرية التي نشزت عن منظومة المؤتلف والمؤتلف عليه، ورغم أن اختلافها . كما تحاجج . جاء مبنيا على دليل، فقد عوملت بكل أساليب الإقصاء، والتهميش، والحجب، وهنا واجهت الباحثة مشكلة معاكسة، وهي ضآلة المصادر فاتخذت عدة مداخل لرصد "المختلف"، المدخل الأول المصادر السائدة حيث كان المنطق الحجاجي فيها بالنقض والإبرام سببا لإيراد الرأي المخالف، والمدخل الثاني هو البحث عن المعطيات المتعلقة بموضوع ما في غير الكتب المخصصة له لأنها تفلت من المراقبة تحت غطاء الثانوي وغير الهام، والمدخل الثالث هو البحث عن المختلف في المصادر غير السنية مثل المصادر الاعتزالية والخارجية الإباضية، والمدخل الرابع هو الكشف عن المختلف من خلال مواطن التوتر في الخطابات السائدة بعد تفكيكها وتتبع آليات تشكيلها.

الإطار الزمني الذي تعنيه الباحثة بـ "الفكر الإسلامي القديم" كما جاء في العنوان، يتحدد بالقرون الهجرية الثلاثة الأولى، و"هي فترة البحث عن الحلول والأجوبة التي طرحها واقع حضاري مميز لم يحسم فيه النزاع الثقافي بعد بشكل ناجز ونهائي لصالح تصور معين"، وعبر هذا التحديد الزمني تذهب الباحثة إلى إعادة النظر في الشائع من المسلمات، والبداهات، والكشف عن المسكوت عنه، والمهمش من المعطيات، الهدف منها . كما تقول الباحثة . بلورة معايير معرفية قد تكون أكثر جدوى في تبين طبيعة الأنظمة الفكرية التي شهدها عصر التأسيس الثقافي، وهي مهمة تبدو كبيرة ومعقدة من الصعب إنجاز مراميها في دراسة واحدة وهي ما لا تدعيه هذه الدراسة التي تعد محاولة تفي بجزء يسير من الحاجة مع اعتراف الباحثة بان مثل هذه الدراسة اقرب إلى الجهود الجماعية منه إلى الجهد الفردي للوصول إلى نتائج اكثر قربا من المأمول، ومن حقيقة الواقع قيد الدراسة.

ان هذا العمل، وفق ما تقدم، يسلك مسلك "الاختيار المنهجي" الذي يقتضي حدودا معرفية معلومة يلتزم بها هي بمثابة الحصر التمثيلي، وتشمل هذه الحدود مراكز اهتمام ثلاثة: مركز الاهتمام الأول هو أسباب النزول كما شاعت في خطاب التفسير، وكما جاءت في خطاب السيرة وتحاول الباحثة هنا معالجة العلاقة بين سبب النزول، والدلالة في النص القرآني من خلال الاختلاف الذي تسجله بين خطابين في تعاملهما مع الموضوع نفسه خطاب التفسير وخطاب السيرة. مركز الاهتمام الثاني هو الفكر الأصولي بين التأسيس الأرثوذكسي وإمكانات أخرى مغايرة وطريفة عرفها الفكر والواقع الإسلاميان، فكانت الإشكالية: ما هي نوعية الإمكانات التي عرفها الفكر الإسلامي في المنهج الأصولي الفقهي، وما حقيقة الاختلاف بينها؟ ولمعالجة هذه الإشكالية قامت الباحثة بعملين يخص الأول تحليل الخطاب في النص الذي اعتبر مؤسسا لمنهج أصولي أرثوذكسي وهو نص الرسالة للشافعي، بهدف الوقوف على العناصر المخالفة له، والتي تأسس هو بإقصائها، والعمل الثاني هو البحث عن شظايا منهج مغاير للمنهج الأرثوذكسي، كان بدأ مع تجربة أصولية متميزة هي تجربة عمر بن الخطاب، وتواصل بشكل مشتت لدى مفكرين آخرين، منهم من هم معاصرون للشافعي. ومركز الاهتمام الثالث هو طبيعة النص القرآني واختلاف العقل الفقهي والعقل الكلامي في تصورها، وهي ما اصطلح على تسميته بمسألة "خلق القران" أو قدمه، فكانت القضية المطروحة بمثابة المجال الذي تقاطعت فيه أنساق فكرية متباينة نتحسس بعض جذورها في القسمين السابقين، وهي قضية خلق القران والمحن التي اقترنت بها، وتحاول الباحثة هنا تقديم مشروع إجابة عن الأسئلة الإشكالية: ما هي حقيقة هذه المقولة الكلامية "القرآن مخلوق"؟ لماذا تقاطع فيها بشكل دموي "الفكري" و "السياسي" ؟ لماذا عرفت تحولا خطيرا في المواقع من حيث نوعية الممتحنين بين علماء كلام، ومحدثين؟

وتمضي الباحثة في الكشف عن هذه القضايا النظرية الجدالية، فتكشف عن رواية التفسير لأسباب النزول ورواية السيرة لها، في الأولى ترى الباحثة بان المعرفة فيها خاضعة لاكراهات غير معرفية، خادمة لها، وفي الثانية تكون مستقلة، ديدنها نقل الحقائق الواقعة أو المفترض أنها كذلك، فنقرأ تصور الجانبين في قراءة الأحداث والظواهر، وما نزل في سيرة الرسول وزوجاته، وعلاقته بالصحابة وبالخصوم، فنجد رواية التفسير، لدى مقاربتها لهذه القضايا، تعمل بشكل دؤوب ومقصود لرسم سيرة مثالية للرسول تستجيب لمقتضى القداسة التي أضفيت على شخصه، بينما جاءت سيرة الرسول في نصوص أصحاب السيرة منزلة في إطارها الواقعي . التاريخي فحافظت بقدر أكبر على عفويتها، وكانت أقرب إلى الهدوء النصي والانتظام المرجعي.

وتقدم الباحثة قراءة مستفيضة لرسالة الشافعي كمثال على الدفاع عن السائد وتأسيس سلطة النص المقدس فلم تعترف الحركة التي قام بها بخصوصيات الماضي التاريخية ولا بمشروعية الحلول العملية التي ارتآها المسلمون لمجابهة المستجد من المعطيات، وهي حلول اقتضاها الحرص على توفير مقومات الدعم لدولة تريد أن تكون .إذاك لم يكن مبدأ"كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم، أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة" هو المنطلق، بل المنطلق مصلحة المسلمين التي لا يمكن أن يرفضها النص.

وكان رائد هذا التوجه التشريعي صحابي من أشهر الصحابة، وخليفة من أشهر الخلفاء وهو عمر بن الخطاب الذي تروي الباحثة عنه الكثير من المواقف والحوادث التي تسند رأيها، كما تناقش المعارك العنيفة التي دارت بين المحدثين (أصحاب الحديث)، والمتكلمين (أصحاب علم الكلام) وهو علم ناشئ، مشاغب، مناهض للسائد أقرب إلى الفلسفة.

المفارقة التي تظهر في هذا السجال العنيف هي فترة حكم المأمون في بداية القرن الثالث للهجرة فمع انتصار المأمون على أخيه الأمين ستشهد الاختيارات السياسية والثقافية السائدة خروجا عنها وخرقا لها بمحاولة تأسيس الاختيارات الفكرية التي كانت إلى حد الأمس مصادرة، وإيثار التحالف مع علماء الكلام على حساب المحدثين والفقهاء أحلاف الأمس، وسيسمح المأمون بالخوض في علم الكلام وتعميق النظر في كل مقولاته، بل . و الأهم من ذلك . سيتخذ من مقولة "القران مخلوق" شعارا ثقافيا لدولته، هذه المقولة التي أسال الاختلاف فيها من الدم والحبر ما لم يسله اختلاف آخر. وستحول اختيارات المأمون الصراع الدائر من محنة على المتكلمين المختلفين إلى محنة على المحدثين الفقهاء.

ومن أهم أصحاب الرأي المخالف خلال الفترة التي تدرسها الباحثة، محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، والنظام، وبشر المريسي، وأبي حنيفة، وثمامة بن أشرس، والعتابي، والجعد بن درهم، وغيلان الدمشقي، ومحمد بن راشد القدري، وعمرو بن عبيد...وغيرهم ممن حاولوا تقويض سلطة المقدس، وإحالة النص إلى مرجعه الواقعي، والنظر إلى جميع المسائل بروح نقدية بعيدة عن أي سلطة غير سلطة المعرفة، الأمر الذي جعلهم يعيشون في ضنك العيش، وتقاوم آراءهم، وتحارب، ودفع الكثير منهم حياتهم ثمنا لمواقفهم، إذ تسهب الباحثة في شرح وجهات نظرهم، والمحن التي تعرضوا لها باستثناء عصر المأمون الذي شهد تحولا كبيرا وغريبا، والباحثة في كل هذه المعالجات تتمتع بجرأة نادرة في الطرح،وبحس نقدي رفيع في المعالجة، وتدقق في أكثر المواقع حرجا في التاريخ الإسلامي، وتعيد طرح أسئلة قديمة جديدة، وتترك الباب مفتوحا للمزيد من الدراسات في هذا المجال الذي لم يأخذ حقه من الدراسة والتمحيص بعد.

قصة

ضفيـــرة

بسمة الخطيب

كما في صباح بعيد، تجلس الطفلة في حضن أمها مستسلمة لعمليّة تسريح الشعر اليوميّة المؤلمة.

أسماء، الطفلة السمراء المتواضعة الجمال، صارت أماً. بعدما كانت تبكي وهي تحت سطوة مشط أمّها، ها هي تسبّب لطفلتها الدموع. بأصابعها المتورّمة والمتقشّبة، تحكم ربط خيط المطاط مستعينة بأسنانها، واضعة حداً لصراخ الطفلة.

في الماضي، عندما كنت أسمع صراخ أسماء، وأحدس أنه سيتحوّل إلى بكاء، كنت أترك عرائسي وأقف عند عتبة بابنا المقابلة لعتبة بابها. أراقبها وهي جالسة فوق أرض الغرفة الأسمنتية، التي كنت كلّما مشيت عليها شعرت بتفتّت الرمال والأسمنت تحت قدميّ، وتباهيت ببلاط بيتنا.

كانت أم أسماء العابسة تغرس المشط في شعر ابنتها وتشده بقوّة، كأنها تنزع أشواكاً من تربة جافّة. تلملم خصل الشعر الخرنوبية المنتوفة، وتكوّرها بين أصابعها، ثم تقذفها من النافذة. ثمّ تأتي المرحلة الوحيدة التي أحبها في ذاك المشهد اليومي، "عقص الشعر". تعقصه كالسنبلة وتحرص على رصّ حبّاتها جيداً. بعدئذ كانت أسماء تمسح دموعها، وتدني ضفيرتها من عينيها لتطمئن إلى شكلها، ثم ترميها إلى ظهرها، وتشير إلي كي أحضر العرائس ونبدأ باللعب... والشجار. أعظم شجاراتنا كانت حول الاستئثار بالدمية ذات الضفيرة الشقراء الطويلة. كانت المفضّلة لكلينا. كنت أحتفظ بها غالباً، بعدما أهدّد بالخروج من اللعبة، فتخضع أسماء لرغبتي لأنّ جميع العرائس لي.

استمرّ هذا إلى أن تركتْ مدرسة الضيعة. تحوّلت تدريجاً إلى صبيّة متعجرفة، لا تفارق أمّها وأختها الكبرى. تحدّثني بلغة الأمر وللضرورة فقط، كأن تطلّ من النافذة وتسألني: "ولي! اسألي أمّك إذا عندها طربون نعنع للفتوش".

طفلتها التي ما زالت متورّدة الوجه بسبب ما تعرّض له شعرها من شدّ، تشبه أباها. عندما رأيته للمرّة الأولى، كان محتقن الوجه أيضاً، حاملاً أكياس الفاكهة لأهل خطيبته. لولا أخي الصغير الذي صاح "جيش جيش"، لما بقيت بزّته العسكرية عالقة في ذاكرتي. بدخول هذه البزّة التي تعني راتباً مستقراً وضماناً صحياً... دخلت الفرحة إلى بيت جيراننا. كنت أسمع غناء ابنتهم وأراها من النافذة تتهادى أمام المرآة بفساتين "الجهاز".

عشية العرس، بقيتُ متسمّرة خلف أحد الكراسي، أراقب بذهول شعر أسماء الطويل المرتخي فوق ردفيها السمينين. بهرتني خصله المتراقصة مع موسيقى "الراديو كاسيت". كانت قد سمنت كثيراً منذ توقّفت عن اللعب معي. امتلأ جسدها بالاستدارات، وساعد الفستان البرتقالي اللون في إبرازها. بدا شعرها المضمخ بالحناء فاتناً وناعماً بفعل "السيشوار".

ما حصل لهذا الشعر كان أفظع مما توقّعت. كنت أخشى أن تقصه كعادة ربّات البيوت والأمّهات في الضيعة، اللواتي لا يعدن يجدن وقتاً للاعتناء بأنفسهن. ولكنه اختفى.

أخفيته تحت الحجاب.

تحجّبت بعدما وضعت ابنتها البكر، وقبل أن تضع أربع بنات أخريات، آخرهن هذه الصغيرة الهزيلة الجالسة الآن في حضنها.

لا يبدو على الطفلة أن حليب أمّها كان يكفيها، فأسماء لم تعد أماً صالحة لإرضاع صغارها، لقد نقص وزنها كثيراً، والسبب الأساس كان خلفة البنات. خمس بنات متتاليات في سبع سنوات كنّ مصيبة حقيقية، سبّبت للأم مشاكل مع عائلة زوجها، فطردت غير مرة إلى بيت ذويها.

في خلال هذه السنوات كنت أتجنّب من لقائها، والظروف تساعدني. فعندما تأتي لزيارة أهلها أكون أنا في المدرسة أو في بيروت، في الجامعة تحديداً. في خلال هذه السنوات أيضاً أخفقت جميع محاولاتي لإطالة شعري. كان من النوع الخفيف والمتعب الذي يحتاج إلى قصّه شهرياً كي يسترد شيئاً من صحّته. إلا أني اليوم علقتُ. فتحتُ الباب في صباح يوم العطلة هذا، لأجد أسماء وابنتها وأمّها أمامي. سلّمت عليها فاندفعت وقبّلتني بحرارة. تجنّبت من إمعان النظر في وجه صديقتي القديمة وجسدها الذي بدا بائساً. كانت تبدو في مثل سنّ أمي، ملامح متعبة، بشرة جافة شعرت بها وهي تقبلني، قدمان مشققتان من الماء.

ثم حدث ما لم أجرؤ على طلبه منها.

نزعت حجابها عن رأسها.

خرجت شهقتي رغماً عنّي. كانت تلم شعرها على شكل كعكة، كاتمة أنفاسه بربطة مطاطيّة صفراء. فكّتها وحاولت هدله.

لكنه لم يهدل.

اعتاد شكل الكعكة.

بدت أطرافه متقصّفة وهزيلة.

ساءتني حالته. عرضت عليها أن أقص أطرافه وأشذّبه. لكنها أعادت لمّه كما كان وارتدت الحجاب، محركة يدها بما يوحي أن لا جدوى من كل هذا.

لحقت بالزائرات بينما أمي تطلب منهن إعادة الزيارة.

عند عتبة الباب المطلّة على ذكريات كثيرة، قدمت، بكل رضا، إلى الطفلة المتعلّقة بصدر أمّها لعبتي ذات الضفيرة الشقراء الطويلة المعقوصة على شكل سنبلة.